ابن بطوطة

هو الرحالة العالمي الشهير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللَّوَاتي الطنجي المعروف بابن بطوطة ، بفتح الباء وضم الطاء الأولى مع التخفيف ، وبعضهم يشددها والجاري على الألسنة خلافه .

ولَواتة التي ينسب إليها هي بفتح اللام قبيلة مغربية منازلها الأصلية ببرقة من أرض طرابلس وتوطن منها بجهات المغرب المختلفة أقوام نبغ منهم بطنجة قبل المترجم أسرة بني سمجون الفقهاء الأعلام وبسبتة الفقيه المشاور أبو جعفر اللواتي المعروف بابن القابسي شيخ القاضي عياض وغيرُ هؤلاء .

على أن أسرة ابن بطوطة نفسها كانت أسرة علمية ظهر فيها القضاة ومشائخ العلم على ما أخبر هو عنها في الرحلة لما خيره ملك الهند في وظائف الوزارة والكتابة والإمارة والقضاء والتدريس فقال : « أما الوزارة والكتابة فليست شغلي ، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي » . وذكر في الرحلة أيضاً أنه لما قدم إلى رندة في رحلته إلى الأندلس كان القاضي بها هو ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . فهذا بيت ثان من لواتة نبغ بطنجة وإن لم نخط بأفراده علماً لسكوت المؤرخين وكتاب التراجم عن ذكرهم . ولولا هذه الإشارة العابرة من رحالتنا إلى ما كان لأهله من مجد علمي لما عرفنا عنه شيئاً من ذلك .

وكانت ولادة ابن بطوطة في مدينة طنجة يوم الاثنين ١٧ رجب عام ٧٠٣ (٢٤ شباط « فبراير » ١٣٠٤) والدولة المَرِينيّة في عنفوان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القوة ، والشعب المغربي في أوج تقدمه العلمي والأدبي ، فمن الطبيعي أن ينشأ ابن بطوطة وهو سليل أسرة علمية عريقة ، على طلب العلم وينبت في حجر والديه نباتاً حسناً ، والظاهر أنه إنما درس على مشائخ بلده ، إذ لانعلم له رحلة في هذا الصدد قبل رحلته الكبرى .

أما طلبه العلم وتحصيله طرفاً منه فمما لاشك فيه ، ويدلنا على ذلك أنه في أثناء رحلته لم يكن يخالط إلاّ أهل العلم ولا يجنح إلا إليهم ، وإذا لقي أحداً من كبار المشائخ ، ومشاهير العلماء حرص على الأخذ عنه والقراءة عليه ، وَتَخَيُّرُهُ هذا لشيوخ الرواية هو وحده دليل على نزعة علمية أصيلة فيه .

ولا ننس أنه لما كان بالبصرة وشهد صلاة الجمعة فيها بمسجد عَلِيٍّ ، لاحظ أن الخطيب يلحن لحناً كثيراً جلياً على حد تعبيره ، فعجب من ذلك وذكره للقاضي فقال القاضي له : « إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو » . وهذا الأمر حمله على أن يسجل هذه الملاحظة للاعتبار فيقول : « وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سبحانه مغير الأشياء ومقلب الأمور ! هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها إمامُه الذي لاينكر سبقه ، لايقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها » .

ثم لاننس أنه ولي منصب القضاء على المذهب المالكي في مدينة دهلي بالهند مدة تُنَيِّف على سبع سنين ثم بجزيرة ذيبة المهل أيضاً مايقرب من سنة ونصف ، كما ولي قضاء الركب التونسي للحج فورَ انفصاله عن المغرب ، ومات وهو قاض ببعض جهات المغرب كما يأتينا عن ابن مرزوق . فهذان الأمران ، وهما ملاحظة اللحن على خطيب البصرة وولايته للقضاء في بلاد عديدة ، زمناً طويلا ، يرشداننا إلى ما كان عليه من ثقافة لغوية وفقهية لايستهان بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أضف إلى أنه كان ينظم شعراً وسطاً على عادة العلماء المتفننين ، وقد أعطانا نموذجاً منه في الرحلة ، وهو سبعة أبيات من قصيدة مدح بها ملك الهند ، فهذا أيضاً دليل على ثقافته الأدبية .

ولم يشر في الرحلة على طولها إلى أنه تلقى شيئاً من الدراسات المماثلة لما ذُكر عن أحد من العلماء الذين لقيهم في البلاد المختلفة ، وإنما ذكر سماعه لبعض كتب الحديث على بعض كبار العلماء وإجازتهم له ، وأخذه للعهد عن بعض مشائخ الصوفية على ما كان عليه الحال في الزمن الماضي ، وتلك طريقة العلماء الذين يحرصون على سمة الرواية وعلو السند ، فلا يقال إنه درس أثناء رحلته ، لأن ذلك لايفهم منه بحال .

وعليه فهو قد درس ببلد « طنجة » وزاول دراسته في فجر حياته لأنه لما شد رحله كان ابن اثنين وعشرين عاماً ، وفي الوقت نفسه كان قد انتهى من الدراسة ، وإذا دل هذا على شيء فعلى أن طنجة كانت غنية بعلمائها في ذلك الوقت ، وهم من الصنف الذي يستغني به الطالب في دراسته الكاملة فلا يحتاج إلى الهجرة في طلب العلم . والغريب أنه لم يُسمّ لنا أحداً من شيوخه هؤلاء ، ولم يذكر شيئاً عن أوليته في الطلب ، وإنما المرجح أن يكون من بين شيوخه بعض أقاربه الذين قال عنهم ما قال .

هذا استنتاجنا بالنسبة إلى تكوينه العلمي ، وأما بالنسبة إلى تكوينه الخلقي فيظهر أن والديه اللذين لم يفتأ يحن اليهما أشد الحنين طوال رحلته ، قد ربياه تربية دينية متينة . فكان قوي العقيدة ، محافظاً على أداء الشعائر الدينية ، صبوراً ، صدوقاً ، واثقاً بالعناية الإلهية ، لاسيما عند الشدائد . وذلك ماجعله يخاطر بالتوغل في أقاصي البلاد والرحلة إلى أقطار العالم في زمن كانت المواصلات فيه شاقة جداً ، والطرق غير مأمونة ، وأكثر الشعوب والأمم على عداء متصل فيما بينها . ومن الدليل على شدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تدينه أن باعثه الأول على الرحلة كان هو ارادة الحج وأداء هذه الفريضة التي لا تجب على الفور ، وهو لم يزل بعدُ في عنفوان الشباب وطراوة الإهاب .

وفي أثناء رحلته الطويلة كان لا يسمع برجل من الصالحين في بلد من البلدان وإن لم يكن على طريقه إلاّ عرّج عليه وزاره وتبرك به وطلب منه الدعاء له ولوالديه . وكذلك كان لا يجنح إلا لأفاضل الناس ولا يصحب إلا ذوي المروءات منهم . وشيء آخر هو أنه منذ ابتداء رحلته ، جرى على الاستفادة من سماحة الشريعة الغراء فكان يتزوج في كل بلد يحل به وينوي الإقامة فيه ، وربما تزوج في الطريق ويصطحب معه زوجته ولا يفارقها حتى تكون هي الراغبة في الفراق ، يتحامى بذلك عن الوقوع في العنت وهتك حرمات أهل البلد الذي ينزله ، وكل ذلك مما يدل على قوة دينه ونقاء عرضه .

ومن أخلاقه الأصيلة أنه كان سريع التأقلُم إن صح هذا التعبير (١) ، ونعني به التكيف بطبيعة الإقليم الذي يستقر به ، والاندماج في أهله ومواطأتهم على عاداتهم ومألوفاتهم حتى يصبح كأنه واحد منهم وكأنما ولد بين ظهرانيهم وعاش معهم زماناً طويلاً ، ولعل لبلده طنجة التي هي طريق رئيسي بين الشرق والغرب وطبيعة أهلها المرحة المنشرحة دخلاً في ذلك ، وهذا على ما نظن مما كان له أثر كبير في تغلغله في الأوساط الاجتماعية المختلفة للبلاد التي زارها ، أضف الى ذلك ما كان عليه من شدة الملاحظة وقوة الذاكرة ، فلا جرم أن تمتاز رحلته بكونها سجلاً مهماً للحياة الاجتماعية حتى والسياسية والاقتصادية في أقطار لم نكن لنعرف عنها شيئاً في الوقت الذي زارها فيه لولا انطباعاته هذه التي سجلها بكل دقة وأمانة .

وإلى هنا نكون قد ألممنا بالعناصر الأولية التي كونت هذه الشخصية القوية ، ولعل عنصراً آخر مادياً يكون ضروري الإضافة إلى هذه العناصر

(١) الأفلمة والتأقلم من المصطلحات العلمية الشائعة التي أقرها مجمع القاهرة . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المعنوية ، وهو متانة بنية الرجل وشدة أسره ، ولا نعدم في الرحلة ما يدلنا على ذلك من المشاق والمتاعب حتى والمعارك المسلحة التي اشترك فيها وواجهها بثبات وشجاعة . وبهذا تتم الصفات التي كان يتوفر عليها الرحالة الإسلامي الأكبر ، والتي هي بتوفيق الله سبب نجاحه المنقطع النظير .

وإذا قلنا الرحالة الأسلامي الأكبر فاننا نعني ما نقول ، لأنه لم يقم من بين المسلمين على كثرة الرحالين فيهم من جاب هذه البلاد العديدة التي جابها ابن بطوطة في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ودوّن مشاهداته فيها وترك لنا مثل هذا الأثر الجغرافي الممتع الذي يقِلُّ له الكفاء ، على أنه حتى بين الأوربيين لم يقم رحالة يَفْرِي فَرِيَّه قبل العصر الحديث . ولهذا نجد مثل سيتزن (Seetzen) الرحالة الألماني يقول :

« أي مسافر أوروبي في هذا العصر يمكنه الافتخار بأنه خصص قدر الزمن الذي يبلغ نصف حياة الإنسان في سبيل التفتيش عن مثل هذا العدد من البلدان السحيقة وذلك بشجاعة لا يزعزعها شيء ، وبتحمل المشقات العديدة ؟ بل أية أمة أوربية كان يمكنها لخمسة قرون خلت ايجاد مسافر يجوب المناطق الأجنبية بمثل هذا الاستقلال في الحكم ، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة ، وبمثل هذه الدقة في كتابة الملحوظات ، مما اتصف به هذا الشيخ المراكشي المشهور في المجلدين من كتابه ؟ ان معلوماته عن الكثير من المقاطعات الإفريقية المجهولة وعن نهر النيجر وعن بلاد الزنج (زنجبار) الخ لا تقل فائدة عن معلومات لاون الإفريقي . أما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار فانها تستفيد كثيراً من كتابه ، حتى أخباره عن الهند وسيلان وسومطرة والصين فانه من الواجب على انكليز الهند[1] أن يقرأوها باهتمام خاص » .

(١) يقول هذا لما كان للانكليز هند .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذ قد عرفنا قيمة الرجل وأهمية الرحلة التي قام بها ، فلنتأثر خطاه لمعرفة البلاد التي زارها والطرق التي سلكها ، من غير أن نقف معه في بلد أو طريق ، إلا نادراً جداً حين نمر بخبر طريف أو نكتة حارة أو وصف لشيء غريب يحسن الوقوف عنده . ولا نستوعب في ذلك أيضاً وإنما نعطي أمثلة قليلة منها لعلها تكون حافزاً لمطالعة أخبار الرحلة كلها في كتاب تحفة النظار .

وقد رحل صاحبنا ثلاث رحلات ، أولاهن وهي اطولهن بدأها في يوم الخميس الثاني من رجب سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وانتهى منهـــا يوم الجمعة أواخر شعبان عام ٧٥٠ ، ومعلوم أن قصده الأول كان هو الحج إلى بيت الله الحرام وأن خروجه كان من طنجة ، وأنه كان له من العمر حين ابتداء الرحلة اثنان وعشرون عاما ، وذلك في أيام السلطان أبي سعيد المَرِيني الأكبر . وقد مر في طريقه بتلمسان وسلطانها يومئذ أبوتاشفين بن أبي حَمُّو ، ولم يمكث بها طويلا لأنه رغب في صحبة رسولَيْ ملك تونس الى بلاط تلمسان ، وهما القاضي أبو عبد الله النفزاوي والشيخ أبو عبد الله الزبيدي ، وكانا قد انفصلا عنها يوم وصوله اليها فلحق بهما ، وتوفي القاضي في الطريق فتأخر هذا الوفد لأجل دفن الميت . وارتحل صاحبنا مع رفقة من التجار ، ومات أحدهم أيضاً وترك مالاً فسطا عليه عامل بجاية ، قال : « وهـــذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين » ، يعني الحفصيين أصحاب تونس . ثم مرض صاحبنا بالحمى ولكنه تحامل على نفسه . وكان قد لقى ثانياً الشيخ أبا عبد الله الزبيدي فساعده كثيراً ، وبعد لأي وصل الى تونس ، قال : « فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ولقاء أبي الطيب بن القاضي أبي عبد الله النفزاوي (المتوفى) فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم عليّ أحد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

معه سوابق العبرة واشتد بكائي ، فشعر بحالي بعض الحجاج فأقبل علي بالسلام والإيناس وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة » .

وهذا الضعف الذي بدا من صاحبنا في هذا الموقف هو مما يستغرب من رجل سيجوب فيما بعد أكثر المعمور وينقطع عن موطنه وأهله خمساً وعشرين سنة ، الا أنه كان الأول والآخر فلم نعد نراه شاكياً ولا باكيا ، وقد برهن بما بدا منه بعد ذلك في غير موقف من التجلد وعدم المبالاة بالأخطار مهما عظمت ، أنه إنما انفجر عند أبواب تونس لوداع المغرب ، وأن ذلك الضعف لم يكن له خلقاً أصيلاً كما حاول أن يلصقه به كل من كتب عنه من الكتاب المحدثين .

وعلى كل حال فقد دخل تونس ونزل بمدرسة الكتبيين منها ، وكان سلطانها يومئذ هو أبو يحيى بن أبي زكريا الحفصي ، ومن أعلامها حينئذ ابن الغماز وابن عبد الرفيع وابن قداح الهواري ، قال : « ومن عوائده أنه يستند كل جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ، ويستفتيه الناس في المسائل ، فإذا أفتى في أربعين مسألة انصرف » . وقد حضر صلاة عيد الفطر بها ، ورأى بروز السلطان الى الصلاة ، ثم خرج في ركب الحاج التونسي إلى الحجاز ، وكان أكثره من المصامدة ، قال : « فقدموني قاضياً بينهم » . وولايته هذه للقضاء في فور انفصاله عن المغرب مما يدل على انه كان يتوفر على مؤهلات علمية كافية .

وخرج الركب من تونس في أواخر ذي القعدة سالكاً طريق الساحل فوصل الى طرابلس في ١٣ من ذي الحجة وتزوج صاحبنا ببنت لأحد التونسيين ، ثم انفصل عن الركب الذي أقام بطرابلس خوفاً من البرد والمطر وغادرها هو أواخر محرم سنة ٧٢٦ هـ في جماعة من المصامدة وتقدم عليهم ، وفي أثناء الطريق وقع بينه وبين صهره التونسي مشاجرة أدت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى فراق بنته ، ثم تزوج بنتاً لبعض طلبة فاس ، وأولم وليمة حبس لها الركب الذي تلاحق بهم بعد ما كان قد تخلف في طرابلس .

وفي أول جمادى الأولى وصل الركب الى مدينة الاسكندرية ، ويخصها الرحالة بوقفة طويلة وصف فيها عجائبها وذكر بعض علمائها ، منهم قاضيها عماد الدين الكندي « إمام من أئمة علم اللسان ، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب » .

وذكر أنه وجد في الإسكندرية ملك تونس المخلوع أبا يحيى زكرياء ابن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني ومعه أولاده وصاحبه ووزيره .

وتجول في الأقاليم المصرية قصداً لزيارة بعض الصالحين ، وفي احدى القرى جرى بينه وبين ناظر القرية حديث عن مبلغ جباية بلده طنجة فأخبره أنها اثنا عشر ألف دينار ذهب فعجب الناظر وقال له : « رأيت هذه القرية ؟ فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينـــار ذهباً » . قال : « وإنما عظمت مجابي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال » . وفي مدينة أبيار حضر عند قاضيها يوم الركبة وهو يوم ارتقاب هلال شهر رمضان ، وفي مدينة دمياط شاهد عجباً وهو أنه « اذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الخروج منها إلا بطابع الوالي ، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » ، وهذا الإجراء الذي كان يوحي به ـ ولا شك ـ موقع المدينة الحربي ، يشبه ما نسميه اليوم بتأشيرة السفر ، ولم يقل صاحبنا ما كان حظه بالنسبة الى هذا الإجراء ، هل الطبع في الكاغد أو على ذراعه فكان من أصحاب الأذرع الممدودة للكشف عنها عند الخروج ؟

وركب الرحالة النيل من مدينة سمنود مصعداً الى مصر « ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض » قال : « ولا يفتقر راكب النيل الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

استصحاب الزاد ، لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية الى مصر ، ومن مصر الى مدينة أسوان من الصعيد » . ووصل الى مصر فبهرته بعظمتها ، ووصف مشاهدها ومعالمها ، وذكر أشياء من أخبار أمرائها وأخلاق أهلها ، وكان سلطانها يومئذ محمد الناصر بن قلاوون ، وقد أثنى عليه وحمد سيرته ، وأعجب بالزاوية التي عمرها خارج القاهرة ، لكنه استطرد ففضل عليها الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان بخارج فاس الجديد . ثم ذكر قضاة مصر فقال إن أعلامهم منزلة وأكبرهم قدراً هو القاضي الشافعي ، وكان إذ ذاك هو العالم بدر الدين بن جماعة الشهير . وذكر العلماء أيضاً فكان من بينهم النحوي الأندلسي المعروف أبو حيان ، وسافر من مصر متوجهاً الى الحجاز بطريق الصعيد ، وفي قوص عاصمة هذا الإقليم ، رأى العالم فتح الدين بن دقيق العيد ، وكان هو الخطيب بها ، فأثنى عليه بالفصاحة والبلاغة والسبق في هذا المضمار وقال : « لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطبي ، وواصل صاحبنا سفره في صعيد مصر الى مدينة أدفو ثم ركب النيل الى مدينة العطواني ومنها امتطى ظهر الجمال ودخل الصحراء مع جماعة من الأعراب الى مدينة عيذاب فوصلها بعد خمسة عشر يوماً . قال وأهلها البجاة وهم سود الألوان ، وأميرهم يعرف بالحدربي وكان تحت السيطرة الاسمية للناصر بن قلاوون . ولقي صاحبنا فيها مشائخ منهم الشيخ المسن محمد المراكشي « زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش (يعني الموحدي) وإن سنه خمس وتسعون سنة . »

ولم يتأت لصاحبنا أن يبحر من عيذاب إلى جدة كما كان يؤمل لأنه وجد صاحبها في حالة حرب مع الناصر ، وقد خرق المراكب وتعطلت طريق البحر ، فرجع عوده على بدئه مع قافلة الأعراب وقطع الصحراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثانية إلى الصعيد ثم إلى قوص ، وانحدر منها في النيل الى مصر ، وكان أوان مده ، فوصلها بعد مسيرة ثمان ، ولم يلبث فيها إلا ليلة واحدة وقصد الشام فاخترق شمال مصر كما اخترق جنوبها وذلك في منتصف شعبان سنة ٧٢٦ هـ ، وفي مركز على الحدود يسمى قطيا وجد صاحبنا ديواناً للتفتيش أهم من الذي حكى عنه بدمياط ، يوجد به المال والكتاب والشهود فتفتش فيه أمتعة التجار ويبحث عما لديهم أعظم البحث ، ويؤخذ منهم الأعشار ، ولا يجاوزه أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين . وذلك يدل على أن العلاقات السياسية بين ملوك مصر والمغول الحاكمين بالعراق لم تكن على ما يرام ، ويقول الرحالة إن الطريق الفاصل بين البلادين كان في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر ، ثم يأتي الأمير في الصباح فينظر الى الرمل فإن وجد به أثراً طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء ، ويُعفي الأميرُ صاحبَنا ومن معه من الرسوم الواجبة والاجراءات اللازمة ، حينما يتحقق أنه مغربي ، لأن المغاربة لا يتعرض لهم في هذا المركز ، ويوجد عند الأمير موظف مغربي يسمى عبد الجليل هو الذي يقوم بمهمة التحقق من مغربية المسافرين . وبذلك لا يختلف هذا المركز عن أي مركز تفتيشي على الحدود بين بلادين مختلفين في هذا العصر حتى في تنصيب الخبراء من الأشخاص . .

ويصل صاحبنا إلى غزة من بلاد الشام وينتقل منها الى الخليل ثم الى القدس فيزور كل ما يمر به من المعاهد والمشاهد ، ويصف المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، ويذكر أسماء مشائخ القدس ، وقد أخذ عن بعضهم العهد ثم يغادرها متنقلاً بين عدة مدن الى أن يصل الى صور قال : « وهي خراب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض ، ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء ، فأتى بعض أهل القرية يتوضأ ، فبدأ بغسل رجليه ، ثم غسل وجهه ، ولم يتمضمض ولا استنشق ، ثم مسح بعض رأسه ، فأخذت عليه في فعله ، فقال لي إن البناء يكون ابتداؤه من الأساس » . ويواصل السير إلى أن يصل بيروت ويقصد منها لزيارة قبر أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب ، قال : « وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر » . ثم يذكر حكايته في الفرار من الملك ومـــا نسجه العوام حول ذلك من عناكب الخيال . والمعروف أن أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي هو الذي راجت حوله هذه الأسطورة (١) ، وابن بطوطة يجعله أبا يعقوب يوسف فلعله أخطأ في اسمه إن لم يكن ذلك من تصحيف النساخ .

ويمضي صاحبنا في طريقه الى طرابلس فيصفها ويذكر من وجد بها من العلماء ومنهم شمس الدين بن النقيب . وما يزال ينتقل من بلدة الى أخرى حتى يصل مدينة حلب فينوه بها كثيراً ، ويغلط في تسمية نهرها بالعاصي ظناً منه أنه النهر الذي يمر بحماة ، واسمه الصحيح القُوَيق ، على أنه يشرح لنا سبب تسمية النهر بالعاصي شرحاً طريفاً فيقول : « قيل انه سمي بذلك لأنه يُخَيِّلُ لناظره أن جريانه من أسفل الى علو » . ولا ينسى أن يذكر من وجد بها من العلماء ومنهم ابن الزملكاني ، ويمر بعد ذلك بأنطاكية ثم بحصون الإسماعيلية : « ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر ، بهم يصيب من بعد عنه من أعدائه بالعراق وغيرها » الخ . كلامه عنهم ثم يمر بمنازل النصيرية ، الطائفة المعروفة ، فيتحدث عنهم وعن هوسهم ، ويجبل لبنان فيصفه بخصب التربة

(١) انظر الاستقصا ج ل ص ١٨٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجمال الطبيعة وبأنه لا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى ، ومن لبنان يصل الى بعلبك فيذكر من خيراتها ومصنوعاتها الشيء الكثير ومن ذلك صحاف الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد ، يصنعون منها دستاً ، يجعل بعضها في جوف بعض ، فيكون الدست يحتوي على عشر صحاف أو ملاعق ، واحدة منها أصغر من الأخرى الى النهاية ، ويصنعون لها غشاء من جلد تمسك به .

وفي ٩ من رمضان سنة ٧٢٦ هـ وصل صاحبنا الى دمشق ، وكان عظيم الاشتياق اليها ، فنزل منها بمدرسة المالكية التي تعرف بالشرابشية . ووصفها فقال : « ودمشق هي التي تفضل جميع بلاد الدنيا حسناً ، وتتقدمها جمالاً ، وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها » .

ويجول فيها جولته فيتحدث عن الجامع الأموي باسهاب ، وعن غيره من المعاهد والمدارس والمزارات ، وعن الأوقاف الخيرية التي اوقفها اهل دمشق على السابلة والمحتاجين وتجهيز البنات الفقيرات إلى ازواجهن ، وإعانة العاجزين عن الحاج ، وفكاك الأسرى ، واصلاح الطرق ، ويذكر ان لطرق دمشق رصيفين في جنبيها يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان في وسطها ، ويحكي هذه الحكاية الطريفة مما يتعلق بالأوقاف الخيرية قال : « مررت يوماً ببعض ازقة دمشق فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني ، فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره ، وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير الى مثل هذا » .

وبالجملة فهو ينوه كثيراً بأخلاق أهل دمشق وبحسن معاملتهم للغريب وكرم ضيافتهم ، ومن كلامه يُعلم أن دمشق في ذلك العصر كانت لا تزال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عظيمة العمران برغم ما مر عليها من أحداث وأن المجتمع الإسلامي بها كان أرقى مايكون . ثم يذكر من لقي بها من العلماء وهم جماعة كثيرة ومنهم ابن الشحنة سمع عليه البخاري في أربعة عشر مجلساً بقراءة البرزالي وأجازه إجازة عامة كما أجازه غيره من أعلامها . ولم يأخذ عن ابن تيمية وإن قال انه رآه [1] .

وفي مستهل شوال السنة خرج من دمشق مع الركب الحجازي قاصداً معان ، ومنها دخل الصحراء « التي يقال إن داخلها مفقود وخارجها مولود » على حد تعبيره ، فوصل المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وبعد قيامه بزيارة الروضة الشريفة وشفاء غليله من تلك المعاهد المنيفة توجه إلى مكة المكرمة على الطريق المعتاد ، فأدى الفريضة على أتم وجه كما كان يؤمل ، وطاف بجميع المشاعر ، وزار كل المشاهد ، ووصف البيت الحرام والحياة في مكة ، وأثنى على أخلاق أهلها أحسن الثناء .

وفي ٢٠ من ذي الحجة خرج من مكة صحبة الركب العراقي ، وكان ركباً حافلا يحتوي على جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم « لايحصى عددهم ، تموج بهم الأرض موجا ، ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس » . أما تجهيز هذا الركب بالمواد والمؤن والأدوية والأشربة ووسائل الراحة فحدث عنه ولا حرج ، وكان أميره يدعى البهلوان وهو من أهل الموصل ، وجميع مايتوفر عليه هذا الركب من الاستعداد الكامل هو من حسنات ملك العراق أبي سعيد ، وقد قرب أمير الركب صاحبنا وأكرمه

---

(١) الصحيح أنه لم يره لأن ابن تيمية قد دخل سجن دمشق في شهر شعبان (عام ٧٢٦ هـ) وبقي فيه الى أن توفاه الله تعالى ، وأما ابن بطوطة فقد دخل دمشق في رمضان من (سنة ٧٢٦ هـ) وبهذا يزول الاشتباه . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويعجبك حديث الرحالة عن الطريق بين الحجاز والعراق عبر نجد وخاصة عن مصانع الماء في الصحراء القاحلة ، وسير الركب ليلاً ، وقد أوقدت المشاعل أمام القطار والمحارات فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل قد عاد نهاراً ، وبالجملة فان ركب الحج العراقي فيا يحدث صاحبنا لايضاهيه ركب ، وهو يتأخر بمكة عن الركبين الشامي والمصري أربعة أيام تفتح فيها الكعبة الشريفة فيدخلها هو ومن ينضوي تحت لوائه ، ويكثر أفراده من الصدقة والعطاءات لأهل مكة حتى انهم « ربما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة إلى أن يفيق » . وتؤثر نفقاتهم السخية في سعر الذهب بمكة فيرخص سومه . وذكر الرحالة أنه لما عاد إلى مكة في سنة ٧٢٨ هـ بصحبة هذا الركب وقع التنويه باسم ملك العراق أبي سعيد على المنبر في الحرم . وما ذلك إلا لأن اللُّهى تفتح اللَّها كما يقولون .

ويترك صاحبنا الركب العراقي في النَّجَف ، بعد ما يزور مشاهد آل البيت ، فيقصد البصرة عن طريق واسط ، ويصف المدينة العربية الشهيرة ، ويقص حكاية خطيبها اللحانة التي تقدمت ، ثم يجوب شط العرب ويخترق بلاد فارس . وفي عبدان يلتقي بأحد العباد فيدعو له بقوله : « بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة » . ويعقب هو بهذه العبارة : « فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا ، وهو السياحة في الأرض ، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيا أعلم ، وبقيت الأخرى ، والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنــة » . وهنا أعرب عن أن مراده كان هو السياحة في الأرض فقط ، ولم يكن قبل يذكر إلا الحج ، كما أنه ذكر هنا عادته في سفره ، وهي أنه لايعود من طريق سلكها ما أمكنه ذلك ، وأنه كان يريد زيارة بغداد ولكن بعض أهل البصرة أشار عليه بالسفر صوب بلاد العجم فعمل باشارته لما كانت موافقة لعادته . وزار في هذه البلاد مدينة تستر وأقام في ضيافة شيخهـا صدر الدين من ذرية سهل بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبد الله التستري الشهير ١٦ يوماً ، قال : فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه . . . وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ، ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألق فيمن لقيتهم مثله .

وزار أيضاً مدينه أصفهان ووصف من ترف أهلها ما يقضى منه العجب وأخذ العهد عن بعض شيوخها وذلك في ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ٧٢٧ هـ . ثم زار شيراز وأثنى عليها كثيراً وجعلها نظيرة دمشق في كثير من الأوصاف ، وذكر من غريب أمورها أن النساء يجتمعن بها لسماع الوعظ كل يوم اثنين وخميس وجمعة في المسجد الأعظم ، وربما اجتمع منهن الألف والألفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر ، قال : « ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد » . ولاحظ شدة تعظيم الأعاجم للعلم والعلماء حتى أن سلاطينهم ربما سموا أبناءهم بأسماء مشيخة العلم ، كسلطان شيراز أبي اسحق بن محمد شاه الذي سماه أبوه باسم الشيخ أبي اسحق الكازروني ، قال : « والفقيه ببلاد الأعاجم كلها انما يخاطب بمولانا » . وممن لقي بشيراز الشيخ مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد إذ سمع عليه مسند الإمام الشافعي ، ومشارق الأنوار للصاغاني ، ومن المشاهد التي زارها هناك قبر الشاعر سعدي المشهور ، قال : « وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألمع في كلامه بالعربي » .

ثم دخل البرية بعد ذلك قاصداً الكوفة ، ومنها توجه الى بغداد دار السلام وحاضرة الإسلام كما قال ، وكان يوجد بها في رجب السنة حين سمع مسند الدارمي على الشيخ سراج الدين القزويني . ولم يطل الكلام عليها ، لأنها كانت في إدبار من أمرها ، لكنه تبسط في الكلام على ملكها أبي سعيد بهادر وموكبه العظيم ، وكان قد سافر بمعيته أياماً ، ثم زار تبريز فأعجب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسوقها الجامعة وخاصة بسوق الجوهريين ، حيث حار بصره مما رأى من أنواع الجواهر وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدي التجار يعرضون الجوهر على نساء الأتراك ، وهن يشترينه كثيراً ويتنافسن فيه ، قال : « فرأيت من ذلك كله فتنة يتعوذ بالله منها » .

وكان ملك العراق أبو سعيد عرف أنه يريد الحج الى بيت الله الحرام ، فأمر له بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل ، إلا أنه رأى الموسم لا يزال بعيداً فسافر الى الموصل وديار بكر ثم عاد فلحق بركب العراق ، وكان أميره هو البهلوان سابق الذكر فأظهر من الاعتناء بصاحبنا ما لا مزيد عليه . . ووصل مكة وحج ثانية عام ٧٢٧ هـ . ولما كان قد اختار المجاورة بالحرم الشريف ، فقد حج ثالثة في العام الموالي ، وحضر في هذه الحجة أناس من بلده طنجة ومن قصر المجاز ومن القصر الكبير ، جلهم من الفقهاء ، فتعرف منهم أخبار المغرب ، ثم انه أقام مجاوراً بمكة أيضاً الى سنة ٧٢٩ هـ ، وحج للمرة الرابعة ، وفي السنة التي بعدها وقعت فتنة بمكة فخرج منها الى جدة وركب البحر لأول مرة الى اليمن عبر سواكن ، فطاف بأرجاء القطر العربي العريق ، ولم ينس أن يسجل التشابه بين اليمنيين والمغاربة في كثير من الأحوال « مما يقوي القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير » . وأبحر من عدن الى مدينة زيلع بالصومال ، ولاحظ عليها شدة القذارة بحيث انه لم يستطع المبيت بها ، ففضل النوم بالمركب مع اضطراب البحر . ثم توجه الى مقدشو عاصمة تلك البلاد ولقي سلطانها وهو يلقب بالشيخ ، ومن غريب ما ذكر من أحوالها أنه عند ما تصدح الموسيقى الرسمية ، لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشياً وقف كما يجري الآن تماماً في بعض البلاد ذات الحكم العسكري ، وعاد الى اليمن عبر ظفار ، ثم عرج على هرمز وسيراف والبحرين ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ووصف مغاص اللؤلؤ فيما بين تلك البلاد ، ورجع أدراجه فعبر الى القطيف مجتازاً باليمامة قصد مكة فحج للمرة الخامسة وذلك سنة ٧٣٢ هـ وذكر أن الملك الناصر بن قلاوون حج في تلك السنة ، ولكنه لم يتصل به على ما يظهر كما لم يتصل به في مصر .

وهنا يكون ابن بطوطة قد قضى في الرحلة سبع سنين ونصفاً وحج خمس مرات ، وطاف العالم العربي كله وجانباً مهماً من العالم الإسلامي ، ومع ذلك فان القسم الأكبر من رحلته كان لا يزال أمامه . ولتأثره مسرعين فقد اتى جدة وأراد أن يبحر الى اليمن قصد الهند ، ولكنه لم يجد مركباً ولا رفيقاً ، فعاد الى مصر بطريق الصعيد ثم الى الشام عن طريق بلبيس وركب البحر الى العلايا بجنوبي آسيا الصغرى قال : « وهي أول بلاد الروم ، فجاس خلالها وتحدث عن أمرائها ، وكان الأتراك حينذاك لم يستتموا وحدتهم بعد ، فحديثه عنهم في هذه الفترة من تاريخهم السياسي له أهمية كبيرة ، ومما يلفت النظر في حديثه عن هذه البلاد منظمات الفتيان المسماة بالأخيّة التي كان يلتقي بها في طول البلاد وعرضها ، وهي منظمات شبيهة بالنقابات والكشفية وتغلب عليها الصبغة الدينية والخلقية فتنتظم فيها جماعات من الشباب ينتسبون الى مهنة معينة ، ويتخذون مقراً لهم يجتمعون فيه كل ليلة ويأكلون ويشربون ويغنون ويرقصون ، مع المحافظة على الشعائر الإسلاميـــة ، والاعتناء بإكرام الضيف وتسلية الغريب وإعانته على قضاء مآربه ، ولهم في هذه الطريقة التي يسمونها الفتوة سند يتصل بالإمام علي كرم الله وجهه ، وشعارهم فيها لبس السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة ، ولعلهم إنما اتخذوا السراويل شعاراً لما يهدفون اليه من التزام الصيانة والعفاف .

وانتقل صاحبنا الى شبه جزيرة القَرِيم من ثغر صنوب بشمالي آسيا الصغرى ، ثم الى أزاق فبلاد البلغار التي وصلها في رمضان ، قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناهـا وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر اثر ذلك ، وكذلك يقصر النهار بها في فصله » وفي هذه البلاد الفسيحة ركب العربات لأول مرة وأكل لحم الخيل وذاق البوزة وهي نوع من النبيذ ، وبما أن أهل البلاد أحناف فإنهم لم يكونوا يتحرجون من شربها . ولاحظ كثرة الخيل بها وانخفاض ثمنها بحيث يكون اصدارها إلى الهند تجارة رابحة جدا ، واتصل بالسلطان محمد أزبك خان في بلاطه المُتَنَقّل ، وهو « مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق » ، وقد حظي عند هذا السلطان حتى أرسله بهية إحدى زوجاته الأربع إلى القسطنطينية ، وكانت تقصد زيارة أبيهـا ملك الروم ، فأتيحت له فرصة زيارة العاصمة البيزنطية الشهيرة ولم تكن فُتحت بعد .

وعاد إلى مدينة السرا عاصمة السلطان أوزبك ، ثم اخترق طريق خوارزم فبخارى وسمرقند وترمذ فخراسان فأفغنستان إلى الهند ، ويطول بنا الأمر لو رقفنا معه في أي بلد من هذه البلاد وتتبعنا ملاحظاته الدقيقة وأحاديثه الطلية عن البلاد وأهلها .

وقد وصل الى الهند في محرم سنة ٧٣٤ هـ ، وفي الحين أخبر به ملك الهند محمد شاه بن تغلق ، إذ كان ذلك هو النظام المتبع في هذه البلاد لا يجاوز أحد حدودهـا حتى يرفع به الى الملك ، فصدر الأمر بإكرامه والاعتناء به ، ثم اتصل به بعد ذلك في الرابع من شوال السنة ، وحظي عنده ، وخيره في مناصب الدولة على ما سبقت الإشارة اليه فاختار القضاء لأنه منصب آبائه ، وفعلا وُلي القضاء المالكي بعاصمة الهند دهلي إلى سنة ٧٤٢ هـ أي ما ينيف على سبعة أعوام ، وبذلك أمكنه أن يذكر من أحوال هذا الملك وبلاطه وحاشيته الشيء الكثير ، وخاصة عن كرمه وأعطياته الخيالية التي لايفوت صاحبنا أن يصرفها بالعملة المغربية ليدل على أهميتها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكذلك ذكر فتكاته التي تغطي على إحسانه ، والحقيقة أن كتابته عن الهند وعن أمرائها وعن أحوالها الاجتماعية ، وهي تكاد تستبد بالجزء الثاني من الرحلة ، هي من خير ما كتب ابن بطوطة تعريفاً بالبلاد التي زارها ، وستبقى مرجعاً هاماً للمؤرخين والباحثين في شؤون الهند وحضارة أهله تحت الحكم الإسلامي .

وفي جمادى الآخرة من عام ٧٤٢ هـ ترك الهند على رأس سفارة عظيمة إلى الصين وبرغم الاستعدادات الفائقة ، فان هذه السفارة قد تعوقت عن الوصول إلى غايتها ، وطوحت الأقدار بصاحبنا إلى جزائر ذيبة المهل بالمحيط الهندي حيث أقام عاماً ونصفاً ، وولي القضاء من طرف سلطانتها خديجة بنت جلال الدين وهو يحكي غرائب عن حياة أهل هذه الجزائر لأنه بحكم إقامته هذه المدة بين أظهرهم وتوليه السلطة في بلادهم تعرف على كثير من أحوالهم .

ثم غادر هذه الجزائر متوجهاً إلى الصين عن طريق سيلان فبنغالة فالملايو فسومطرة فالزيتون التي هي ميناء صينية على المحيط الهادي تُعرف الآن بتسيوان تشو . وتوغل صاحبنا في داخل البلاد التي تقع على مقربة من ساحل المحيط الأعظم حتى وصل خان بالق التي هي بكين عاصمة الصين اليوم ، ومع أنه لم يحب الصين كما حاب الهند فإنه لم يخل رحلته من أخبار مهمة عن هذه البلاد ولا سيما أحوال المسلمين بها ، وتحدث عن براعة الصينيين في فن التصوير وصناعة الفخار ، وعن تعاملهم بأوراق النقد وادخارهم الذهب والفضة بشكل سبائك كما يعمل مصرف أي دولة في هذا العصر . واستمع إلى حديثه عنهم في التصوير : « ومن عجيب ماشاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق » الخ . وما ندري هل اصطحب معه صورة منها أم لا ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما حديثه عن أمن الطرق والتحفظ على أموال الناس وسهولة المواصلات وتنظيم الملاحة التجارية فشيء لايقل عما لدى أرقى الدول العصرية اليوم، وفي الشرق على العموم كانت الطرق حسبما يروي صاحبنا، مأمونة ومقسمة إلى مراحل يجد فيها المسافر كل مايحتاج اليه وبعضها كما في بلاد الملیبار، كان مكتنفاً من الجانبين في أكثره بدكاكين التجار وبعضها كالطريق بين دهلي ومدينة ظهار كانت عليها النصب فيها عدد الأميال التي قطعها المسافر والتي بقيت له، فالأمر كما يقال لاجديد تحت الشمس.

ومن الصين ينكفىء صاحبنا راجعاً عن طريق سومطرة فالهند فاليمن فبلاد العجم فالعراق فالشام فمصر إلى أن يصل مكة في ٢٢ شعبان ٧٤٩ هـ فيقيم بها إلى موسم الحج ويحج للمرة السادسة ثم يسافر إلى المدينة المنورة ومنها إلى القدس ثم إلى مصر وينثني عائداً إلى المغرب بعد أن غاب عنه ٢٥ سنة فيدخل فاساً في أواخر شعبان عام ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ويمثل بين يدي السلطان أبي عنان المريني فيغمره بإحسانه كما قال ويثني عليه أحسن الثناء بل يعمل مقارنة بينه وبين من شاهدهم من ملوك الدنيا فيفضله عليهم.

* * *

لم تستقر النوى بصاحبنا بعد رحلته الأولى هذه، حتى عاد فبدأ رحلته الثانية في مملكة غرناطة بالأندلس وذلك لئلا يفوته هذا القسم من العالم الإسلامي مع أنه بِرُؤيةٍ منه وَمَسْمَعٍ، فقد أصبح الآن حريصاً على استيعاب البلاد الإسلامية بالزيارة ليتأتى له أن يقول مفتخراً على السائح المصري الذي لقيه بمدينة برصى (وهو من الصالحين جال الأرض إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرندیب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم)، وليصبح بعد ذلك (مسافر العرب والعجم) كما قال له الشيخ جلال الدين التبريزي في بنغالة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد خرج صاحبنا في هذه الرحلة من بلدة طنجة فمر بسبتة وجبل طارق ، وكان ملكها حينئذ أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر ، ولقي بهـا من الأعلام أبا القاسم الشريف وأبا سعيد بن لب وأبا البركات ابن الحاج وأبا القاسم بن عاصم . وقد ذكره ابن الخطيب في الإحاطة ولم يزد على تسميته شيئاً غير ما نقله من خط شيخه أبي البركات تبييناً لحاله ونصه : (هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب ، رحل من بلاده إلى بلاد الشرق يوم الخميس الثاني من رجب عـام خمسة وعشرين وسبعمائة ، فدخل بلاد مصر والشام وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين وصين الصين وبلاد اليمن ، وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة ولقي من الملوك والمشائخ عالماً ، وجاور بمكة ، واستقر عند ملك الهند فحظي لديه وولاه القضاء ، وأفاد مالاً جسيماً وكانت رحلته على رسم الصوفية زياً وسجيةً ، ثم قفل الى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق وما استفاد من أهله فكُذّب) .

وقال : « لقيته بغرناطة وبتنا معه ببستان أبي القاسم بن عاصم بقرية نبلة ، وحدثنا في تلك الليلة وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقية وغيرها فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى وهي على قدر مدينة مسقفة كلها ، وفيها اثنا عشر ألف أسقف »[1] .

وقد عقب ابن الخطيب على هذه الفذلكة بقوله : « قلت وأسادينه في الغرابة أبعد غوراً من هذا . وانتقل الى العدوة فدخل بلاد السودان ثم إن ملك المغرب استدعاه فلحق به وأمره بتدوين رحلته » .

وهذا الاجتماع الذي كان في بستان ابن عاصم أشار له صاحبنا في الرحلة وحكى أنهم أقاموا فيه يومين وليلة . وزاد كاتب الرحلة أبو عبد الله بن

(١) هذا مخالف لما في الرحلة فانظرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جزي فقال : « كنت معهم في ذلك البستان ومتعنا الشيخ أبو عبد الله (يعني ابن بطوطة) بأخبار رحلته وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم واستفدنا منه الفوائد العجيبة » .

* * *

وعاد صاحبنا الى فاس ، فلم ينشب أن شرع في رحلته الثالثة الى بلاد السودان . وفي سجلماسة أخذ أهبته لهذه الرحلة والتحق برفقة يرأسها أحد رجال مسوفة ، وذلك في غرة محرم فاتح ٧٥٣ هـ ، فبعد ٢٥ يوماً وصل الى تغازي ، وهي قرية الملح بناؤها من أحجار الملح المسقفة بجلود الجمال ، وتجارتها في الملح مع السوادين تجارة عظيمة . وبعد استراحة عشرة أيام ، استأنف الرحلة عبر الصحراء ، وكانت رحلة شاقة ومحفوفة بالمخاطر ، وأخيراً وصل الى مدينة ايوالاتن أول عمالة السودان وهي مدينة أكثر سكانها من مسوفة ، وهم مع محافظتهم على الصلاة وقراءة القرآن وطلب العلم ، لا غيرة لهم على أزواجهم ، وللنساء هنالك حياة اجتماعية متحررة من كل القيود .

وخرج صاحبنا من ايوالاتن متوجهاً صوب مالي عاصمة البلاد فلقي سلطانها منسى سليمان ، ولم ينل منه خيراً ، غير أنه وصفه بالعدل والاستقامة وأتى بوصف معجب لبلاطه ولخروجه إلى صلاة العيد ، ثم توجه إلى تمبكتو ومنها الى تكدا ، ووصل في تنقلاته بين هذه المدن الى نهر النيجر ، فظنه النيل ، ورأى التمساح في بعض ضفافه « كأنه قارب صغير » كما رأى فرس البحر في بعض خلجانه ، ومن المحقق أنه جاب في هذه الرحلة أماكن لم يصل اليها سائح من قبله ، ووصفها وصفاً معجباً . فلهذا القسم من رحلته أهميته التي لا تقل عن أقسامها الأخرى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبينما هو في تكدا وافاه أمر السلطان أبي عنان بالرجوع إلى المغرب ، فكر راجعاً الى سجلماسة عن طريق توات . وفي نهاية عام ٧٥٤ هـ وصل إلى فاس بعد أن قضى في هذه الرحلة عامين كاملين ، وباضافتهما مع الزمن الذي قضاه في رحلة الأندلس يكون قد صرف زهاء ثمانية وعشرين عاماً في التنقل والترحال ، فما أعظمها من همة وهكذا تكون الرجال .

وأمره السلطان بإملاء رحلته على الكاتب أبي عبد الله بن جزي ، وهو أحد أولاد العالم أبي القاسم بن جزي ، فقام هذا بما كلف به من ضم أطراف الرحلة وترتيبها ، وتصنيفها وتهذيبها وسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ؛ وانتهى من ذلك فى ٣ من ذي الحجة عام ٧٥٦ هـ . . . وكأن السلطان أبا عنان لما وفد عليه ابن بطوطة أولاً في عام خمسين غفل عن أمره بتدوين رحلته ، والعذر له ، فقد كان مشتغلا بتثبيت دعائم ملكه ، ومصارعة أعدائه . ثم تنبه للأمر بعد ذلك فنفذه كما رأيت ، باستدعاء ابن بطوطة من أقصى بلاد السودان ، على أنه قد قيل إنه كان موفداً من قبله الى تلك الديار في مهمة ، ولا يظهر ذلك من سياق الخبر في الرحلة .

* * *

وبعد انتهاء الرحلة ينسدل حجاب كثيف على حياة ابن بطوطة التي وإن طالت بعد ذلك أكثر من عقدين من السنين فاننا لم نعد نعرف عنها شيئاً بعد أن لابسناها وصاحبناها في أفراحها وأتراحها مدة ثمان وعشرين سنة ، غير أن ابن حجر في « الدرر الكامنة » نقل من خط ابن مرزوق : « أنه بقي الى سنة سبع وسبعين ومات وهو متولي القضاء ببعض البلاد » فيرشد هذا الكلام الى أنه حظي عند بني مرين وولوه منصب القضاء الذي قال عنه « انه شغله وشغل آبائه » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويزيد ابن مرزوق فيقول فيما قرأه ابن حجر بخطه : « ولا أعلم أحداً جال في البـــلاد كرحلته ، وكان مع ذلك جواداً محسنا » ، وهي شهادة لرحالتنا من العلامة ابن مرزوق تعضدها قراءة الرحلة . على أن ابن حجر أشار أيضاً الى دفاع ابن مرزوق عن الرحالة فيما كان من اتهام أبي البركات ابن الحاج له فقال : « وكان البلفيقي رماه بالكذب فبرأه ابن مرزوق » ، والبلفيقي هو أبو البركات بن الحاج . وقد سبق نقل كلامه عن الإحاطة .

ولم يبين ابن مرزوق الجهة التي كان ابن بطوطة يتولى بها القضاء ، ولكن ابن الخطيب في « نفاضة الجراب » أثبت نص كتاب وجهه إلى صاحبنا بصفته قاضي تامسنا ، يرجو منه المساعدة على شراء قطعة أرض بجواره ، يعدها للفلاحة عند الحاجة ، وذلك لما قرر الاستقرار بالمغرب ، فمن هذا نعرف مكان ولايته للقضاء الذي كان هو محل وفاته .

وعلى ظاهر كلام ابن مرزوق ، فان ابن بطوطة توفي سنة ٧٧٧ هـ ، وفي دائرة المعارف الإسلامية أنه توفي سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) وعليه كثير من الكتاب المحدثين .

ومن هنا يعلم أنه لم يتوف بطنجة ، وان كان يوجد بها ضريح ينسب اليه ، ويفد الرحالة من كل جنس إذا قدموا طنجة عليه . لكننا نستريب في أن يكون ذلك هو مرقد الرحالة الحقيقي .

أولاً ـ لأن وفاته لم تكن بطنجة .

ثانياً ـ لأن اسم الضريح في ألسنة الناس أحمـــد بن علال وليس هو اسم بطوطة .

ثالثاً ـ لأن طنجة خضعت للاحتلال الأجنبي ، البرتغالي ثم الإنجليزي ما ينيف على قرنين من الزمن بعد موت ابن بطوطة فيبعد أن يبقى قبره محفوظاً ومعروفاً بعد هذه المدة الطويلة التي تغيرت فيها معالم المدينة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جميع الوجوه . وعلى كل حال فهو وإن يكُنْ ذا صفة رمزية ، ضريح متواضع جداً لا يتناسب وعظمة الرجل الذي طبقت سمعته الآفاق .

وقبل أن نختم هذه الترجمة لا بد أن ننقل ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن رحلة صاحبنا ، لأن فيه رداً على ما سبق عن ابن الخطيب من الاسترابة بأخبار الرحالة الصدوق ، قال ابن خلدون : « ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين ، رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، وكان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند ، واتصل بملكها لذلك العهد ، وهو السلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمـــله ، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان ، وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بممالك الأرض ، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحضر أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه ، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافةً إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى ان يدخل ديوانه ، وامثال هذه الحكايات ، فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه ، ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت ، ففاوضته في هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل ، لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس : اياك أن تستنكر مثل هذا في أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشىء في السجن ، وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك الحبس ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها ، فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت : تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر ، وكذا في لحم البقر والإبل إذ لم يعاين في محبسه الا الفأرة فيحسبها كلها أبناء جنس للفأرة ، وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب ، كما قدمناه أول الكتاب . فليرجع الإنسان الى أصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ، ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه ، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء ، فلا يفرض حداً بين الواقعات وإنما مرادنا بحسب المادة التي للشيء ، فإذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه ، (وقل رب زدني علماً) » .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net